الثواب والعقاب عند ابن خلدون وابن جماعة
دراسة مقارنة واستشراف تربوي معاصر

د. عز الدين حدو
دكتوراه في التفسير وعلوم التربية
أستاذ عرضي بالمدرسة العليا للتربية والتكوين بوجدة

الملخص

تستعرض هذه الدراسة تحليلاً أكاديميًا معمقًا لمفهوم الثواب والعقاب في الفكر التربوي الإسلامي، من خلال مقارنة دقيقة بين آراء اثنين من أبرز أعلام التربية الإسلامية: ابن خلدون وابن جماعة. تهدف الدراسة إلى استكشاف دور هذين الأسلوبين في تشكيل شخصية المتعلم، وتعزيز السلوك الإيجابي، وتصحيح السلوكيات السلبية، مع تسليط الضوء على قدرة هذه المفاهيم على التفعيل في الواقع التربوي المعاصر. واستخدمت الدراسة المنهج التحليلي المقارن لاستعراض النصوص الفكرية المتعلقة بالثواب والعقاب لدى ابن خلدون وابن جماعة، متناولة مقاصدهما التربوية ومحاولة لتفسير الأسس النفسية والاجتماعية التي انطلق منها كل منهما. كما سعت الدراسة إلى إبراز نقاط التكامل في رؤاهما ودورهما في تشكيل فلسفة تربوية شاملة. وخلصت الدراسة أيضا إلى أن ابن خلدون شدد على أهمية الاعتدال في استخدام الثواب والعقاب لتجنب الإفراط أو التفريط، مشددًا على دور التربية في بناء مجتمع متوازن ومستقر. في المقابل، أكد ابن جماعة على أهمية التعامل بالرفق والصبر كأساس للعملية التربوية، معتبراً أن الثواب يعزز السلوك الإيجابي، بينما يجب أن يُستخدم العقاب كوسيلة تهذيبية تراعي كرامة المتعلم. وتؤكد الدراسة أن مفهومي الثواب والعقاب يتجاوزان كونهما أدوات تربوية ليصبحا جزءًا من رؤية متكاملة تهدف إلى بناء الفرد الصالح والمجتمع العادل. وتدعو إلى الاستفادة من هذه المبادئ التربوية الإسلامية في صياغة أنظمة تعليمية حديثة تراعي القيم الأخلاقية وتواكب متطلبات العصر.

الكلمات المفتاحية:

الثواب؛ العقاب؛ التربية الإسلامية؛ ابن خلدون؛ ابن جماع.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حدو، عز الدين. (2025، يناير). الثواب والعقاب عند ابن خلدون وابن جماعة: دراسة مقارنة واستشراف تربوي معاصر. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، العدد 1، المجلد 2، السنة 2، ص 355-368.

مقدمة:

تعدّ مسألة التربية من أبرز القضايا التي تشكل هوية المجتمع، فهي مرآة تعكس قيمه وأخلاقه، وتحدد مسار تطوره. وقد كان الفكر التربوي الإسلامي، بما يحمله من أسس دينية عميقة، من أميز النظريات التي تناولت التربية بصورة شاملة، حيث لم يكن هدفه مجرد تعليم المعارف، بل كان يسعى إلى بناء الإنسان المسلم فكريًا وروحيًا وأخلاقيًا. وفي هذا السياق، يأتي دور مفهوم "الثواب والعقاب" في الفكر التربوي الإسلامي كأداة رئيسية من أدوات تشكيل شخصية المتعلم. وقد أثارت هذه الثنائية نقاشًا مستمرًا بين المفكرين، سواء في التراث التربوي الإسلامي أو في النظريات التربوية الحديثة، حول دور كلٍّ منهما في تنشئة الأفراد وتوجيه سلوكياتهم.

لقد اعتُبر الثواب والعقاب من أهم الأساليب التربوية، التي تساهم في تعزيز السلوكيات الإيجابية، وتقويم السلوكيات السلبية لدى المتعلم. ورغم تعدد المناهج والأساليب التربوية الحديثة، التي اعتمدت على الثواب والعقاب بطرق مختلفة، إلا أن التساؤلات حول كيفية تناول الفكر التربوي الإسلامي لهذه الثنائية تبقى ملحة. كيف تناول ابن خلدون وابن جماعة هاتين الوسيلتين؟ ما دورهما في بناء المنظومة التربوية الإسلامية؟ وما المقاصد التربوية من وراء تطبيق هذه الأساليب؟

يهدف هذا المقال إلى الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال دراسة أفكار ابن خلدون وابن جماعة، بوصفهما من أبرز المفكرين في الفكر التربوي الإسلامي، وما قدماه من مفاهيم وأساليب تربوية في استخدام الثواب والعقاب في تنشئة الأجيال، مع محاولة فهم كيفية تطبيق هذه الأفكار في عصرنا الراهن بما يتناسب مع تطور المجتمع ومتطلباته.

إشكالية البحث:

تكمن إشكالية البحث؛ في فهم كيفية تناول الفكر التربوي الإسلامي لثنائية "الثواب والعقاب" بوصفها وسيلة تربوية، وتحديد وظيفة كل منهما في بناء شخصية المتعلم وتوجيه سلوكه. لذا، يمكن صياغة الإشكالية على الشكل الآتي:

كيف تناول الفكر التربوي الإسلامي، من خلال آراء ابن خلدون وابن جماعة، ثنائية "الثواب والعقاب" كونها وسيلة تربوية في تشكيل شخصية المتعلم وتحقيق أهداف التربية؟ وما هي المقاصد التربوية والآثار الاجتماعية المترتبة على استخدامها؟

أهداف البحث:

يمكن تلخيص أهداف البحث في النقاط الآتية:

- دراسة آراء ابن خلدون وابن جماعة في استخدام الثواب والعقاب وسيلةً تربوية ضمن السياق الفكري التربوي الإسلامي؛
- تحليل المقاصد التربوية للثواب والعقاب كما تناولها كل من ابن خلدون وابن جماعة في فكرهما التربوي؛
- استكشاف تأثير الثواب والعقاب في بناء شخصية المتعلم.

الدراسات السابقة:

الثواب والعقاب في الفكر التربوي الإسلامي خلال العصر العباسي، للباحث: أحمد محمد عقلة، رسالة ما جستير، نشرتها كلية الدراسات العليا بالأردن نوقشت سنة 1999م. الدراسة تتناول الثواب والعقاب في الفكر التربوي الإسلامي خلال العصر العباسي، مركزة على آراء المفكرين التربويين في تلك الفترة. تهدف إلى تعرف المفاهيم التربوية المتعلقة بالثواب والعقاب، وكيفية تطبيقها في المؤسسات التعليمية العباسية. أظهرت الدراسة أن المربين في العصر العباسي استخدموا مجموعة من الإجراءات مثل المكافآت المالية، والمدح، والعقاب البدني، مع مراعاة شروط مثل العدل والمساواة بين المتعلمين. كما تم تطبيق هذه الإجراءات في المؤسسات التعليمية؛ كالكتاب والمسجد. توصيات الدراسة تدعو إلى الاستفادة من هذه المبادئ في النظام التربوي المعاصر.

مبدأ الثواب والعقاب في التعلم من وجهة نظر الفكر التربوي الإسلامي، للباحثين محمد مختار وصالح نعمات، بحث منشور على مجلة القلزم العلمية، ضمن العدد 25 ديسمبر 2022م. تناولت الدراسة أسلوب الثواب والعقاب كونها أحد أساليب التربية الإسلامية، ومدى جدواه في التربية والتعليم. توصلت الدراسة إلى أن الثواب والعقاب في التربية يجب أن يحقق العدل بين الطلاب برفق وتأديب عند الحاجة، وأن يكون الثواب مرتبطًا بالقيم والأخلاق دون إغراء مالي، والعقاب محدودًا مثل التوبيخ. وقد أكدت الدراسة أهمية تقويم الأخلاق دون إفراط في الشدة، لما لها من أثر سلبي على المتعلمين، مع ضرورة تعامل المعلم بالنصح واللطف لتحسين أخلاقهم. كما أشارت إلى أن العقاب البدني يجب أن يقتصر على حالات محددة وفق ضوابط صارمة وبإذن ولي الأمر.

تتصل دراستنا بالدراستين السابقتين، من حيث تناولها لموضوع الثواب والعقاب بوصفه أحد الأساليب التربوية في الفكر الإسلامي، وأثره في بناء الشخصية التعليمية والتربوية. مع تفردها بالتركيز على نموذجين بارزين

من أعلام الفكر التربوي الإسلامي، وهما ابن جماعة وابن خلدون، عبر تحليل رؤاهما التربوية المتعلقة بالثواب والعقاب، ومقارنة منهجيهما في تطبيق هذه المبادئ، والكشف عن العمق الفكري لتصوراتهما، مع إبراز ما يميز كل منهما في سياق الفهم التربوي الإسلامي.

أولا: في مفهوم أسلوبي الثواب والعقاب

- الثواب

عرّف أسلوب الثواب التربوي بكونه: "ما يحصل عليه التلميذ من شخص آخر كأن يكون الأب أو المدرس أو مدير المدرسة أو أي شخص آخر من مكافآت مادية أو معنوية بحيث تؤدي إلى الشعور بالفرح والسرور والارتياح"[1]. وعرفه أيضا بكونه: شكلا من أشكال التعزيز الموجب للسلوك الإنساني ويشمل مجموعة من الحوافز المادية والمعنوية"[2]. يمكن القول إجرائيا إن الثواب هو مجموعة من الإجراءات والممارسات التربوية التي تهدف إلى تعزيز السلوك الإيجابي، وتنشيط الدافعية لدى المتعلم، وذلك من خلال تقديم مكافآت مادية أو معنوية يشترط فيها تحقيق مستوى معين من السلوم أو الأداء، وفق معايير محددة لا تخرج عن دائرة العدل والمساواة، وبما يتماشى مع احتياجات المتعلمين وقدراتهم، بغية غرس القيم والأخلاق بشكل مستدام.

- العقاب

يعرّف العقاب بكونه: "كل فعل ما يؤدي إلى الشعور بعدم الرضا وعدم الارتياح مثل التأنيب والزجر والقسوة وكذلك الحرمان والضرب الذي يعتبر من أهم وسائل العقاب"3. وعرف العقاب المدرسي بكونه: "وسيلة زجرية لتحسين حالة التلميذ وليس الانتقام منه. إنه وسيلة تمس كيانه وكرامته لردعه عن المضي في الطريق السيئ والرجوع به إلى الطريق المستقر"4. وإجرائيا يمكن القول إن العقاب المدرسي يعد أسلوبا تربويا يوظف لتقويم السلوك غير المرغوب فيه لدى المتعلم، عبر إجراءات تهدف تقليل تكرار السلوك، وتكون إما معنوية مثل التوبيخ والملاحظات، أو مادية ضمن ضوابط صارمة. مع اشتراط أن يكون هذا العقاب تربويا في طبيعته5، وتحفظ فيه كرامة المتعلم، وتراعى فيه ظروفه النفسية والاجتماعية.

---

[1] عبد المنعم الكناني، سيكولوجية التعلم وأنماط التعليم: وتطبيقاتها النفسية والتربوية، مكتبة الفلاح، ط1/1992م، ص 31.

[2] انتصار كاظم جواد، أساليب الثواب والعقاب وأهميتها في عملية التعليم، مجلة الجامعة العراقية، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، عدد 9/26، ص 07.

[3] جيلفورد، ميادين علم النفس (النظرية والتطبيقية)، ترجمة يوسف مراد، دار المعارف -مصر، ط1/1950م، ص122-124.

[4] عضاضة أحمد مختار، التربية العلمية التطبيقية في المدرسة الابتدائية والتكميلية، مؤسسة الشرق الأوسط -القاهرة، ط3/1996م، ص 13.

[5] مثل تقويم السلوك، تصحيح الأخطاء، وتعزيز الالتزام بالقيم الأخلاقية والانضباط، دون أن يتحول إلى وسيلة للإيذاء أو الإهانة.

ثانيا: الثواب والعقاب عند ابن جماعة:

هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، ولد في حماة عام 639هـ. ونشأ وترعرع في بيت علم وزهد، كان قاضيًا وعالمًا بالحديث وعلوم الدين، وقد ولي الخطابة بالقدس، كما ولي القضاء بمصر والشام إلى أن هرم وعمي ثم توفي بالقاهرة عام 733هـ.

يُعد ابن جماعة من أعلام الفكر التربوي الإسلامي الذين بلوروا رؤية متكاملة للعملية التربوية، حيث صاغ أفكاره في إطار موحد يجمع بين مختلف عناصر التربية لتحقيق أهداف واضحة وشاملة. وقد تميزت رؤيته بالانسجام والتكامل، إذ "تتآلف فيه العناصر وتتضامن لتعطي التربية تعريفًا واضحًا وأهدافًا أو مقاصد تنصب على بناء الإنسان السليم، في الأمة القوية، والمجتمع المعافى"[1]. انطلق ابن جماعة في فكره التربوي من فهم عميق لدور التربية في تشكيل الفرد والمجتمع، فجعل منها أداة أساسية لإعداد الإنسان. من هذا المنطلق، شكلت الأساليب التربوية العملية، بما فيها الثواب والعقاب، جزءًا من رؤيته لتحقيق التوازن بين تقويم السلوك وتعزيز الفضائل.

تبرز رؤية ابن جماعة في أسلوبي الثواب والعقاب بوصفها تصورًا متكاملًا يعكس التوازن التربوي بين الحزم والرفق، وهي رؤية تستمد عمقها من القيم الإسلامية والاحتياجات النفسية والتعليمية للمتعلمين. وتتسم هذه الرؤية بقدرتها على بناء علاقة إيجابية بين أطراف العملية التعليمية، حيث يمثل الثواب وسيلة لتعزيز القيم الإيجابية، بينما يُعد العقاب آلية تهذيبية لإصلاح السلوكيات الخاطئة.

أ- الرفق والصبر أساس للتعامل التربوي

يشكل الرفق والصبر عند ابن جماعة حجر الأساس في بناء العلاقة بين المعلم والمتعلم، حيث يرى أنهما ليسا مجرد أخلاق محمودة، بل ضرورة تربوية لضمان نجاح العملية التعليمية. في كتابه **"تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم"**، ويضع ابن جماعة تصورًا للعلاقة التربوية المثالية بين الطرفين، ويؤكد فيها أن المعلم الناجح هو الذي "يعتني بمصالح طلابه ويعاملهم كما يعامل أعز أولاده[2] بالحنو والشفقة عليه، والإحسان إليه، والصبر على جفاء ربما وقع منه"[3].

هذا التوجيه يعكس وعي ابن جماعة بطبيعة النفس البشرية لدى المتعلمين، الذين قد يقعون في الخطأ أو السلوك السلبي نتيجة الجهل أو نقص التجربة، مما يستدعي من المعلم التحلي بالصبر واللطف في تقويمهم.

---

[1] عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن جماعة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت لبنان، ط1/1990م، ص 7.

[2] يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم". أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الطهارة، رقم الحديث: 2592.

[3] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تح: محمد هاشم الندوي، دار الكتب العلمية -بيروت، 1354هـ، ص 56.

ويُظهر هذا التصور تأثرًا عميقًا بالقيم الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم، حيث يجد في الآية الكريمة: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ}[1] منهجًا ربانيًا يرسم ملامح العلاقة المثلى بين المعلم وتلامذته، يقول سيد قطب -رحمه الله- في تفسير الآية: "هي رحمة الله التي نالته، ونالتهم، فجعلته ﷺ رحيمًا بهم، لينًا معهم، ولو كان فظًّا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس بحاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم، وضعفهم، ونقصهم"[2].

يقدم ابن جماعة بذلك رؤية متكاملة للرفق أساسا للتربية، ليس فقط لأنه يحافظ على كرامة المتعلم، بل لأنه أيضًا يخلق بيئة تعليمية خالية من الخوف والضغوط النفسية، مما يعزز قدرة المتعلم على الاستفادة من الأستاذ علمًا وسلوكًا.

ب-الثواب وسيلة لتعزيز السلوك الإيجابي

ينتقل ابن جماعة بعد التأكيد على أهمية الرفق إلى الحديث عن دور الثواب في التربية، فهو يرى أن تشجيع المتعلم على السلوك الإيجابي والثناء عليه عند تفوقه في الأخلاق أو التحصيل هو الأسلوب الأمثل لتحفيز المتعلمين الآخرين، يقول في هذا السياق "وإن تفوق بعض الطلبة في الأخلاق والتحصيل والتدين لا مانع إظهار إكرامه تشجيعًا لغيره على الاتصاف بالصفات المحمودة[3]".

هذا التوجيه يعكس فهمًا عميقًا لدور الثواب في تعزيز القيم والسلوكيات المرغوبة، ويبرز ابن جماعة في هذا التصور أثر البيئة الاجتماعية الإسلامية التي كانت تشجع على تقدير العلم وأهله. يستشهد بذلك بما ذكره الحسن البصري عن تقاليد الاحتفال بإنجازات الطلاب، حيث كان النجاح في العلم مناسبة اجتماعية يُحتفى بها، قال البصري -رحمه الله-: "كان الغلام إذا حذق[4] قبل اليوم نحروا جزوراً وصنعوا طعاماً للناس"[5]. لتشجيعه ومدحه أمام الناس ليستزيد في طلب العلم.

ويتفق هذا النهج مع ما توصلت إليه الدراسات التربوية الحديثة التي أكدت على أن المكافأة المعنوية والمادية تُسهم في تثبيت السلوك الإيجابي، وتهذيب الأداء، وتقويم السلوكيات غير المرغوبة. إن الثواب، وفقًا لابن جماعة، ليس مجرد أداة تشجيعية، بل هو وسيلة لغرس القيم وتحقيق الأهداف التربوية العليا.

---

[1] آل عمران: 159.

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط5/ 1386هـ، ج4، ص 116.

[3] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، مرجع سابق، ص 201م.

[4] حذق الصبي القرآن: أي أصبح ماهراً فيه.

[5] ابن أبي الدنيا، النفقة على العيال، تح: نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم - السعودية، ط1/ 1990م، ج1، ص 489.

ج- التدرج في العقاب لضبط السلوك السلبي

رغم أهمية الثواب في رؤية ابن جماعة، إلا أنه يدرك أن التربية لا تكتمل دون تقويم الأخطاء، خصوصًا عند مواجهة سلوكيات سلبية أو انحرافات تؤثر على الوضع التعليمي. ولكن ما يميز ابن جماعة هو نظرته المتأنية للعقاب، حيث يرى أنه يجب أن يكون عملية تربوية بحد ذاتها، تهدف إلى الإصلاح وليس الإيذاء أو الانتقام.

يُظهر ابن جماعة حسًا عاليًا بالمسؤولية التربوية حين يوصي المعلم بالتدرج في العقاب، بحيث يبدأ هذا التدرج بالنصح بأسلوب لطيف "يبسط عذره بحسب الإمكان ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف لا بتعنيف وتعسف، قاصدًا بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شأنه فإن عرف لذكائه بالإشارة فلا حاجة إلى صريح العبارة، وإن لم يفهم ذلك إلا بصريحها أتي بها وراعى التدريج في التلطف. ويؤدبه بالآداب السنية، ويحرضه على الأخلاق المرضية"[1]. وفي حال تكرار الخطأ، يوصي بالانتقال إلى التوبيخ العلني مع مراعاة الكرامة الشخصية للمتعلم، قال -رحمه الله: " فإن لم ينتهِ جهر له وأغلظ القول بما يناسب الموقف، فإذا لم ينته لا مانع من طرده"[2]. فتكون العقوبات المادية مثل الطرد أو الضرب، آخر ما يلجأ إليه المعلم كملاذ أخير، مع وضع قيود صارمة على استخدامها.

يؤكد ابن جماعة أن الضرب لا يجوز إلا في حالات استثنائية وبشروط دقيقة، كما ذكر ذلك القابسي -رحمه الله- في "سياسة المعلمين"، ومنها أن يكون الضرب بقدر الحاجة، وألا يتجاوز ثلاث ضربات، وأن يتجنب الوجه والرأس، وألا يكون بهدف الانتقام[3].

د- خلاصة رؤية ابن جماعة التربوية في الثواب والعقاب

يظهر العمق الفكري في تصور ابن جماعة لأسلوبي الثواب والعقاب في عدة جوانب مهمة، تعكس نظرته التربوية المتكاملة، والتي من شأنها تعزيز الجوانب الأخلاقية والنفسية لدى المتعلمين، وتأسيس بيئة تعليمية متوازنة وناضجة. وتتجلى هذه الرؤية في النقط الآتية:

1. الاهتمام بالجوانب النفسية والأخلاقية للمتعلم: يولي ابن جماعة أهمية كبيرة للجوانب النفسية والاجتماعية للمتعلم، بحيث يشدد على ضرورة التفهم والصبر في التعامل مع المتعلمين، مما يعكس اهتمامًا بتعزيز نموهم الشخصي والعاطفي.

---

[1] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، مرجع سابق، ص 47.

[2] ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربية الإسلامية، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ص 193.

[3] أحمد فؤاد الأهواني، التعليم في رأي القابسي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر -القاهرة، ط1/ 1945م، ص 284.

2. موازنة بين التحفيز والتقويم: يرى ابن جماعة أن الثواب ليس فقط وسيلة لتعزيز السلوك الجيد، بل أداة لبث الثقة والإبداع في المتعلم. كما يُستخدم العقاب بشكل تدريجي، مع مراعاة الموقف والظروف الخاصة بالمتعلم، من أجل إصلاح سلوكه وتوجيهه نحو الأفضل.

3. التدرج في العقاب: يعكس ابن جماعة رؤية تربوية هادفة عند استخدام العقاب، حيث يراه جزءًا من عملية تربوية متكاملة تهدف إلى تعديل السلوك وتعزيز القيم الأخلاقية. كما يعزز مبدأ التدرج، بحيث يُعطى المتعلم الفرصة للتعلم والتصحيح قبل أن يتم اللجوء إلى أي شكل من أشكال العقاب.

4. الشروط الدقيقة لاستخدام العقاب البدني: ينظر ابن جماعة إلى العقاب البدني بوصفه وسيلة أخيرة تُستخدم فقط في حالات الضرورة، مع التأكيد على ضرورة أن يكون بقدر الحاجة وبأسلوب متوازن، مع تجنب أي إيذاء جسدي عنيف أو نفسي للمتعلم.

5. التركيز على إكرام المتعلم: ابن جماعة يعد إكرام المتعلم ليس فقط على أساس تحصيله العلمي، بل أيضًا على أساس أخلاقه وسلوكه. يعكس هذا اهتمامًا بتشكيل شخصية المتعلم بشكل متكامل، يعزز القيم الأخلاقية والاجتماعية، ويشجع على التعاون والاحترام في المجتمع التربوي.

6. الدمج بين الفكر التربوي الإسلامي والمبادئ الحديثة: يظهر التوافق بين رؤية ابن جماعة والمبادئ الحديثة في التربية، حيث يولي أهمية كبيرة للتعزيز الإيجابي في تشكيل السلوكيات، مع مراعاة الصحة النفسية والجوانب التربوية للمتعلم، بما يساهم في بيئة تعليمية متوازنة ومتكاملة.

ثالثا: الثواب والعقاب عند ابن خلدون

هو عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، ولد في تونس سنة 1332م وشب فيها وتخرّج من جامعة الزيتونة، ولي الكتابة والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس، ثم انتقل إلى مصر وتوفي هنالك عام 1406م.

ناقش ابن خلدون في مقدمته العديد من العلوم والقضايا الفكرية والتاريخية (بل يمكن القول جل القضايا التاريخية)، فقد درس التاريخ البشري والمجتمع الإنساني والعمران الحضاري، دراسة فاحصة عن طريق منهج علمي رصين خالف فيه "الفلاسفة والفقهاء"[1]، حتى أصبح يشار إليه في الفكر الإسلامي والغربي على أنه صاحب مشروع ورؤية حضارية خاصة. ولم يكن ابن خلدون في خضم هذا المشروع ليغفل الحديث عن المسألة التربوية، فقد ضمن في مقدمته جملة من القوانين والمفاهيم والآراء في العملية التعليمية التعلمية. حيث

[1] عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن كثير وابن الأزرق، دار اقرأ -بيروت، ط1/ 1984م، ص 64.

حدد في ضوء هذه التعاليم والأفكار الشروط اللازم توفرها في شخصية المعلم ليكون أهلًا للقيام بدوره في التدريس.

تعكس رؤية ابن خلدون التربوية المتعلقة بالثواب والعقاب فهمًا عميقًا لمقتضيات التربية السليمة، حيث يتناول في مقدمته علاقة الثواب والعقاب بالعملية التعليمية من خلال مرجعية اجتماعية ونفسية تتجاوز مجرد استخدام هذه الأدوات كونها وسائل ردع أو تحفيز. ولا يرى ابن خلدون في العقاب وسيلة أداة لتنفيذ سلطوي على المتعلم، بل يعالجها باعتبارها جزءًا من عملية تربية تتطلب فهماً متكاملاً للعوامل النفسية، الاجتماعية والتاريخية المؤثرة في الأفراد والمجتمعات.

أ- العقاب القاسي وتأثيراته النفسية والاجتماعية:

يقول -رحمه الله-: "إرهاف الحد بالتعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المالك أو الخدم؛ سطا به القهر وضيق عن النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة"[1].

يرتكز النقد الذي يوجهه ابن خلدون إلى أسلوب العقاب القاسي على فهم عميق لتأثيراته النفسية، التي قد تؤدي إلى "إرهاف الحد بالتعليم"، وهو ما يُعد "مضرًا بالمتعلم". ابن خلدون يشير إلى أن هذه الممارسات تعرقل النمو الطبيعي للمتعلم من خلال التأثير على "انبساط نفسه" وتوجيهه نحو الكسل والمكر، وهو ما قد يشكّل "سوء الملكة". من هنا، يُظهر ابن خلدون وعيًا تحليليًا بآثار التربية القهرية التي تؤدي إلى تدمير عناصر الفضيلة والنشاط العقلي لدى المتعلمين. فهو يربط بشكل مباشر بين أساليب القهر والتعسف وبين التدهور الأخلاقي والعقلي للأمم، قائلاً: "وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف"[2]، ما ينعكس على النشاط العقلي والسلوك الاجتماعي للأفراد.

ب-التساهل المفرط وتداعياته التربوية:

يقول -رحمه الله-: "يفرط في التساهل فيستحلي (المتعلم) الفراغ ويألفه، لكن يقومه المعلم بالقرب والملاينة، فإن أبى ففي الشدة شريطة ألا يضرب ضربًا مبرحًا"[3].

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د ط ن، ج 1، ص 578.

[2] نفسه، ج 1، ص 597.

[3] المرجع نفسه، ص 540-541.

إلى جانب النقد الحاد للأساليب القاسية، لا يتوقف ابن خلدون عند تحذيراته فقط بشأن العقاب، بل يتجاوزها ليشير إلى خطر التساهل المفرط. فهو يعترف بأن "التساهل المفرط" يمكن أن يؤدي إلى "مضيعة للتعليم"، وهو ما يعكس بُعدًا تربويًا عميقًا في فهمه للعملية التعليمية. ويؤكد ابن خلدون ضرورة إيجاد توازن دقيق بين القسوة والتساهل، ويحدد معالم هذا التوازن عبر "القرب والملاينة" مع المتعلم، مع ضرورة استخدام "الشدة" بشكل مدروس إذا لزم الأمر، بشرط ألا تُفضي إلى "ضرب مبرح". من هنا، يتضح أن ابن خلدون لا يعتبر التساهل مجرد تجنب القسوة، بل يراه عاملًا مفسدًا للتركيز الذهني والنشاط العقلي للمتعلمين. التوجيه هنا لا يقتصر على الحث على التطبيق المتوازن فقط، بل يعكس أيضًا استراتيجية تربوية تهدف إلى الحفاظ على دافعية المتعلم واندفاعه نحو التفوق، دون أن يكون عرضة للتساهل الذي يؤدي إلى ضياع فاعلية التعليم.

ج- خلاصة رؤية ابن خلدون التربوية في الثواب والعقاب

يظهر العمق الفكري في تصور ابن خلدون لأسلوبي الثواب والعقاب من خلال رؤيته المتكاملة التي تتعدى الجانب السلوكي المباشر، لتشمل الأبعاد النفسية والاجتماعية والتربوية. وتتمثل هذه الرؤية في النقاط التالية:

1. الفهم النفسي والاجتماعي لتأثير الثواب والعقاب: يظهر ابن خلدون في تحليله لآليات الثواب والعقاب عمقًا فكريًا يتجاوز التصور التقليدي الذي يرى فيهما مجرد أدوات لتقويم السلوك. فهو يدرك أن العقاب لا يتوقف أثره عند التصحيح الظاهر للسلوك، بل يمتد ليؤثر على البنية النفسية للمتعلم. إذ يرى أن العقاب القاسي يفضي إلى نتائج غير مرغوب فيها، مثل "إرهاف الحد بالتعليم"، حيث يؤدي إلى إضعاف النشاط العقلي للمتعلمين وتدمير توازنهم النفسي، مما يعزز من مظاهر السلبية مثل الكسل والمكر. هذه الرؤية تُظهر بوضوح الفهم الاجتماعي والنفسي المعقد الذي يؤطر التفاعل بين المعلم والمتعلم، وتُبرز أهمية مراعاة هذه الأبعاد في الممارسات التربوية.

2. التوازن بين الشدة والتساهل: يُظهر ابن خلدون قدرًا كبيرًا من الحذر في تحديد العلاقة بين الشدة واللين في التعامل مع المتعلمين، حيث يرفض الإفراط في التساهل لما قد يؤدي إليه من ضياع في العملية التعليمية، ويعارض في الوقت نفسه الشدة المفرطة التي تعيق التطور العقلي والنفسي للمتعلم. هذه الموازنة بين الشدة واللين هي تجسيد لرؤية تربوية عميقة تأخذ بعين الاعتبار طبيعة المتعلم وظروفه النفسية والاجتماعية، مع التأكيد على ضرورة أن يكون المعلم قادرًا على التكيف مع الوضعيات المختلفة التي قد تواجهه في مساره التربوي.

3. التفاعل التاريخي والاجتماعي: يُعبر ابن خلدون عن رؤية تربوية متكاملة عندما يربط بين أساليب الثواب والعقاب وتاريخ المجتمعات. فهو يرى أن التربية القهرية، التي تمارس على الأفراد والجماعات، لا تضر بالفرد فقط، بل تمتد آثارها لتشمل المجتمع جميعه، مما يؤدي إلى انحطاط حضاري. هذه الفكرة تعكس تفكيرًا عميقًا في كيفية تأثير السياقات التاريخية والاجتماعية على العملية التربوية، حيث تُظهر أن التربية ليست مجرد عملية فردية، بل هي جزء لا يتجزأ من التطور الحضاري للمجتمعات.

رابعا: مقارنة منهجي ابن جماعة وابن خلدون وإمكانية الاستفادة منهما في العصر الحديث

من خلال ما تم بسطه من أفكار عالمينا الجليلين -رحمهما الله- ظهر أن لكل منها فهما عميقا لأسلوبي الثواب والعقاب في العملية التعليمية. ورغم تباين السياقات التاريخية والاجتماعية لكل منهما، ورغم وجود أوجه التماثل في منهجيهما، إلا أنّ لكل منهما تصوره الخاص الذي يعكس رؤيته الحضارية والنفسية للتربية.

- منهج ابن جماعة:

يعتمد ابن جماعة في تصوراته التربوية على مبادئ الإسلام الأخلاقية، إذ يرى أن الثواب والعقاب يجب أن يكونا جزءًا من منظومة تربوية تهدف إلى بناء الشخصية وفقًا للقيم الدينية. يعالج العقاب كأداة إصلاحية تهدف إلى تهذيب النفس، وبالتالي فإن العقاب هنا يتجاوز كونه رد فعل على السلوك، ليكون وسيلة لبلوغ الكمال الأخلاقي. كما يعزز من استخدام الثواب محفزا يعكس التكريم والتشجيع على الالتزام بالقيم.

- منهج ابن خلدون:

في تصوره، يدمج ابن خلدون الثواب والعقاب في أبعاد أعمق تتعلق بالسياق الاجتماعي والنفسي. فهو لا يقتصر على كونهما أدوات للتوجيه السلوكي، بل يعتبرهما من العوامل التي تؤثر على بناء الشخصية الاجتماعية والنفسية للمتعلم. من خلال تحليله لأثر العقاب القاسي، الذي يراه يؤدي إلى تهدم النشاط العقلي والنفسي ويولد كسلًا، يؤكد على ضرورة التوازن بين الشدة والتساهل، حيث لا يجب أن يكون العقاب مبالغًا فيه حتى لا يؤدي إلى الكبت، وفي الوقت ذاته يجب ألا يكون التساهل مدعاة للفساد السلوكي.

- توظيف الثواب والعقاب في كلا المنهجين:

ويركز منهج ابن جماعة على اعتماد الثواب والعقاب بشكل متكامل في إطار نظام تربوي هادف يشمل فاعلية الروح الإسلامية، بحيث يرى في العقاب وسيلة لتعديل السلوك، ولكنه في الوقت ذاته يشدد على أهمية إظهار المحبة والرحمة التي تغلف هذا العقاب.

منهج ابن خلدون يعيد توظيف هذه الأفكار في إطار أوسع، حيث يربط بين الآثار النفسية والاجتماعية للثواب والعقاب. فالمجتمع الذي يتعرض أفرادُه للقهر يُنتج أجيالًا متراوحة بين الخوف من العقاب والرغبة في الهروب منه، وهو ما يعوق النمو العقلي والإبداعي. لذلك، يكون الثواب والعقاب عنده متصلين بعمق بالبنية الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد.

- الاستفادة من أفكار ابن جماعة وابن خلدون في إصلاح الواقع التربوي المعاصر

لتحقيق استفادة فعّالة من أفكار ابن جماعة وابن خلدون في إصلاح النظام التربوي الحديث، يمكن تطبيق المبادئ التالية:

1. **تعزيز التقدير المعنوي**: يمكن للمدارس التي تعتمد المناهج الحديثة خاصة، أن تعزز من تقدير جهود المتعلمين من خلال شهادات التميز والجوائز التقديرية للمشاركات الأكاديمية والأنشطة اللاصفية بدل أسلوب الدرجات. هذا يشجع الطلاب على التحسين المستمر في سلوكهم وأدائهم، بما يتماشى مع رؤية ابن جماعة في تحفيز المتعلم معنويًا.

2. **العقوبات المعتدلة**: تقليص اعتماد العقوبات البدنية والتركيز على وسائل معتدلة، مثل الأنشطة التطوعية أو التوجيه. مع اعتماد أسلوب الحوار مع المتعلمين عند ارتكابهم المخالفات، مما يتماشى مع فكر ابن خلدون الذي يعزز التفاعل النفسي والاجتماعي في تصحيح السلوك.

3. **إعادة بناء ثقافة العقاب والثواب**: يجب وضع نظام متكامل للحوافز والعقوبات يوازن بين التشجيع المعنوي والعقوبات التي لا تضر بالمتعلم نفسياً، مما يعزز من تطوير شخصيته بشكل متوازن ويحفزه على التحصيل الأكاديمي والمشاركة الفعالة.

خامسا: خلاصة واستنتاجات:

من خلال ما سبق يتبين تقارب الرؤية التربوية عند ابن جماعة وابن خلدون بحيث تنتهي هذه الرؤية إلى أن:

العقاب لم يكن هو الوسيلة الأولى في تأديب المتعلم على خطئه، وإنما كان هو الوسيلة الأخيرة بعد أن تستفرغ كل الوسائل (الموعظة، الكلمة الحسنة، القدوة...) من المعلم، فبعدها يكون ذلك بقدر لا ضرر مادي فيه على المتعلم، بل أحيانًا يقتصر كما رأينا مع ابن جماعة على الطرد فقط. وبالتالي فالعقاب في التربية الإسلامية ليس أمرًا مرفوضًا في التأديب، لكنه منضبط ومعتدل لا مبالغة ولا عنف فيه.

يعود هذا الموقف لابن جماعة وابن خلدون في مسألة عقاب المتعلم إلى الأسس التي بنوا عليها نظرياتهم التربوية والمتمثلة أساسًا في القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث نجد في هذه الأخيرة جملة من الأحاديث في المسألة، نذكر مثالًا لا حصرًا: قال صلى الله عليه وسلم: "علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف"[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: "ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى، ولم يؤيسهم من روح الله، ولا يدع القرآن رغبة إلى ما سواه، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر"[2]. وقال أيضًا: "وقروا من تتعلمون منه، ووقروا من تعلمونه"[3].

كما لا يغيب في الفكر التربوي الإسلامي عمومًا وعند عالمينا على وجه الخصوص وسيلة ثواب المتعلم ومدحه والثناء عليه، إن هو أحسن صنعًا، فذلك له وقع عميق في شخصية المتعلم، بحيث يستشعر في نفسه أهمية العمل الذي مدح لأجله، مما يدفعه ذلك إلى تكراره والاستكثار منه. كما يدفع ذلك زملاءه في الفصل إلى أن يحذوا حذوه ويشجعهم على طلب المزيد من العلم. ولنا في حياة رسول الله مع أصحابه نماذج من ذلك: فقد رُوي عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أنه سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: مَن أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: "لقد ظننتُ ألاَّ يسألني أحدٌ عن هذا الحديث أول منك؛ لما علمتُ من حرصك على الحديث..."[4] فكان هذا المدح من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه دافعًا له في الحرص على طلب الحديث.

[1] جلال الدين السيوطي، جمع الجوامع، تح: مجموعة من الباحثين، الأزهر الشريف، -القاهرة، ط2/ 2005م، ج 5، ص 630.

[2] نفسه، ج 17، ص 799.

[3] نفسه، ج10، ص 663.

[4] صحيح البخاري، تح: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية -مصر، ط/1311هـ، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم الحديث: 6570.

لائحة المصادر والمراجع

كتب ومقالات علمية

- عبد المنعم الكناني، سيكولوجية التعلم وأنماط التعليم: وتطبيقاتها النفسية والتربوية، مكتبة الفلاح، ط1/1992م.
- انتصار كاظم جواد، أساليب الثواب والعقاب وأهميتها في عملية التعليم، مجلة الجامعة العراقية، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، عدد 9/26.
- جيلفورد، ميادين علم النفس (النظرية والتطبيقية)، ترجمة يوسف مراد، دار المعارف - مصر، ط1/1950م.
- عضاضة أحمد مختار، التربية العلمية التطبيقية في المدرسة الابتدائية والتكميلية، مؤسسة الشرق الأوسط -القاهرة، ط3/1996م.
- عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن جماعة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت لبنان، ط1/1990م.
- سنن ابن ماجه.
- ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تح: محمد هاشم الندوي، دار الكتب العلمية -بيروت، 1354هـ.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط5/ 1386هـ.
- ابن أبي الدنيا، النفقة على العيال، تح: نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم - السعودية، ط1/ 1990م.
- ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربية الإسلامية، دار ابن كثير، دمشق بيروت.
- أحمد فؤاد الأهواني، التعليم في رأي القابسي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر -القاهرة، ط1/ 1945م.
- عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن كثير وابن الأزرق، دار اقرأ -بيروت، ط1/ 1984م.
- ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د ط ن.
- جلال الدين السيوطي، جمع الجوامع، تح: مجموعة من الباحثين، الأزهر الشريف، -القاهرة، ط2/ 2005م.
- صحيح البخاري، تح: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية -مصر، ط/1311هـ.